آفاق

ملحق أسبوعي يصدر عن صحيفة 14 أكتوبر مرتين في الشهر مؤقتاً بالتنسية مع مركز سبأ للدراسات الاستراتيجية

الأربعاء - 29 ديسمبر 2010 - العدد 15037

Wednesday - 29 December 2010 - Issue 15037

ثلاثة تساؤلات حول تفجير السيارات المفخخة في الجوف وصعدة

عايش علي عواس

aish@shebacss.com

في تطور لافت يشير إلى حقيقة أن مشكلة صعدة لم تنته بعد، اصطدمت يوم الـ 24 من الشهر الماضي سيارة مفخخة يقودها انتحاري بأخرى يستقلها مجموعة من أتباع جماعة الحوثي، بينما كانوا في طريقهم إلى مديرية الزاهر بمحافظة الجوف للاحتفال بذكرى يوم "الغدير"، وبعدها بيومين، وبنفس الأسلوب والوسيلة، انفجرت سيارة مفخخة أخرى في منطقة سحار بمحافظة صعدة مستهدفة قافلة سيارات يستقلها مجموعة من أبناء محافظة مأرب بزعامة الشيخ مبارك المشن الزايدي، كانت في طريقها إلى ضحيان للمشاركة في تشييع جثمان بدر الدين الحوثي، الزعيم الروحي لحركة الحوثيين، ومرجعيتها الفكرية، وقد أسفر الحادثان عن مقتل 23 شخصاً، وإصابة نحو 20 آخرين. فمن يا ترى يقف وراء تلك الهجمات؟ وما هي الأهداف والغايات المقصودة من وراء تنفيذها؟ وهل ستتكرر هذه العمليات في المرحلة القادمة، أم أنها حوادث ظرفية؟

من يقف وراء التفجيرات؟.. فرضيات متضاربة

رغم أن تنظيم القاعدة أعلن صراحة تبنيه للهجومين الانتحاريين، إلا أن الآراء ما زالت متضاربة حول الجهة المنفذة لتلك الهجمات بين فريق يرجح فرضية القاعدة وآخر يشكك في مصداقيتها. الأمر الذي يدفعنا إلى مناقشة الفرضيات المطروحة بهذا الشأن، ومحاولة تمحيصها استناداً إلى ما هو متوافر من معلومات حول الموضوع حتى هذه اللحظة.

لا شك في أن تنظيم القاعدة في جزيرة العرب يحتل المرتبة الأولى على قائمة المتهمين في ما جرى لأسباب واعتبارات موضوعية، منها أن التنظيم بادر دون غيره إلى إعلان مسئوليته عن الهجومين بحجة الدفاع عن أهل السنة جراء ما يتعرضون له من عمليات تهجير وتنكيل على يد الحوثيين، وهي فرضية لا تبدو مستبعدة بالنظر إلى تصاعد حدة العداء بين الطرفين في الآونة الأخيرة، وطابع العمليتين الذي يحمل بصمات القاعدة من حيث الأسلوب والوسيلة، فضلاً عن أن التنظيم هدد في وقت سابق من هذا العام برد فعل قوي تجاه جماعة الحوثيين إذا لم تبادر الأخيرة بالإفراج عن اثنين من عناصره كان قد تم اعتقالهما على أيدي تابعيها، وتسليمهم للجهات الأمنية، وهو ما لم يفعله الحوثيون حسب أقوال بعض الوجهاء في محافظة الجوف، مما يعني أن العمليتين قد تكونان رد فعل على اعتقال عناصره، لكن رأياً كهذا تثور حوله شكوك، لا سيما أن القاعدة قد ردت على تلك الخطوة في شهر أغسطس من العام الجاري باختطاف نائب مدير الأمن السياسي في محافظة صعدة العقيد علي محمد صلاح الحسام، وأمهلت السلطات اليمنية حينها 48 ساعة للإفراج عن عضويها المعتقلين، مقابل الكشف عن مصير المسئول الأمني. ووقتها لم تحمل القاعدة جماعة الحوثيين أي مسئولية، فما الذي قد يدفعها بعد مضي هذا الوقت لاجترار الماضي؟ وحتى لو افترضنا جدلاً أن ذلك صحيح، أو ليس من المنطقي أن تلجأ القاعدة إلى اختطاف قيادات حوثية أسوة بما فعلته مع نائب مدير الأمن السياسي.

في المقابل تجاهلت جماعة الحوثيين التي استهدفتها السيارات المفخخة فرضية القاعدة، ووجهت أصابع الاتهام للمخابرات الأمريكية والإسرائيلية، وحجتها فيما ذهبت إليه - حسب البيان الصادر عن المكتب الإعلامي لعبد الملك الحوثي - أن العمليتين تحملان نفس النمط والأسلوب الأمريكي الساعي إلى خلق مشاكل ذات أبعاد مذهبية وطائفية في المنطقة، كونها المستفيد الأول من وراء ذلك، والحال أن هذه الفرضية، رغم تمسك الحوثيين بها، تثير الاستغراب، بل تعتبر غير منطقية بالنظر إلى رفض أمريكا المستمر لمطالب الحكومة اليمنية الداعية لضم جماعة الحوثيين إلى قائمة المنظمات الإرهابية، وتحفظ مسئوليها في أكثر من مناسبة على تقديم أسلحة ومعدات عسكرية لليمن خشية استخدامها من قبل حكومته ضد الحوثيين، والأهم من هذا أن أمريكا، حسب المعلومات المتداولة، لعبت دوراً في وقف الحرب السادسة، لأن استمرارها - من وجهة نظر واشنطن - يفسح المجال لتوسع حضور القاعدة ونشاطها في الأراضي اليمنية، فضلاً عن أن جماعة الحوثي لم تقدم حتى اليوم على ارتكاب فعل يستدعي عداء أمريكا لها، وخلاصة هذه المعطيات أن وقوف أمريكا وراء الهجمات يبقى احتمالا ضعيفا، والسؤال الذي يحتاج إلى مناقشة بالتالي هو: ما السبب الذي يدفع الحوثيين لاتهام أمريكا وتجاهل القاعدة؟ ... تصرف جماعة الحوثيين - على نحو ما سبق الإشارة إليه - يهدف في أغلب الظن إلى المحافظة على تماسك الجماعة، وضمان استمرار التأييد لها من قبل الأنصار والموالين، باعتبار أن شعبيتها في أوساط هؤلاء مستمدة أساساً من موقفها المعادي لأمريكا، أما في حال اتهمت القاعدة؛ فإنها في هذه الحالة تضع نفسها في صف واحد مع أمريكا ضد القاعدة، وهو ما سوف يشكك في مصداقيتها لدى الناس، ولدى الأنصار والمؤيدين على حد سواء، وكذلك لتجنب الصراع الطائفي لكي لا تغرق في دوامة العنف المذهبي، وتتأكد مصداقية هذا الرأي من التباين الفاضح ما بين الموقف المعلن الذي يتهم أمريكا، وما بين الإجراءات المتخذة من قبل الجماعة على أرض الواقع خلال الفترة التي أعقبت انفجار السيارات المفخخة في الجوف وصعدة، حيث عمد الحوثيون في الأيام الماضية إلى تشديد حملتهم المناهضة للقاعدة، واعتقال كل من يشتبه بعلاقته بالتنظيم، ووصل الأمر بالقائد الميداني للحوثيين إلى حد إهدار دم كل من يتعاون مع القاعدة، وهو ما يعني في الأخير أن الحوثيين يتهمون في الخفاء القاعدة، وفى العلن الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل.

وضمن الفرضيات المطروحة، تعد الحكومة اليمنية أحد الأطراف المشتبه بضلوعها في تلك التفجيرات كون مهاجمة الحوثيين، وإضعاف حضورهم وهيبتهم يصب في الأخير لمصلحتها، لكن إدانتها وتنديدها بالحادثين، وتزامن تلك التفجيرات مع استضافة اليمن لبطولة خليجي 20، وتواصل مساعي الوساطة القطرية لإحلال السلام في صعدة يقلل من صوابية رأي كهذا، لأن هذه العمليات - وفي هذه الوقت بالذات - لا تصب في مصلحة الحكومة اليمنية.

ونخلص من كل ما سبق إلى أن القاعدة تظل المتهم الرئيسي في تفجير السيارات المفخخة في محافظتي الجوف وصعدة، ولكن يصعب تحميلها وحدها كامل المسئولية، وذلك لأسباب واعتبارات عديدة منها أن أحد الهجومين وقع في محافظة صعدة، وهذه المحافظة لا تتمتع فيها القاعدة بحضور يعتد به، كما هو الحال في مأرب والجوف وشبوة، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية استهدف الهجومان وجاهات قبلية وبعض أبناء قبائل مأرب، وهذا يتصادم مع رغبة التنظيم في تحاشي الاحتكاك بسكان المناطق القبلية ويوسع قاعدة العداء للتنظيم في أوساط المجتمع. وتفسير ذلك لا يخرج عن واحد من احتمالين اثنين، الأول: هو أن الفاعل طرف غير القاعدة، والاحتمال الثاني: وهو الأرجح أن القاعدة في هذه المرحلة قررت الدمج ما بين أجندتها الخاصة المناهضة لجماعة الحوثيين، ومابين أجندة القوى المتضررة من توسع النفوذ الحوثي أو أنها أصبحت مخترقة.

القصد والغاية من وراء التفجيرات

لا أتفق بداية مع الرأي القائل بأن الهدف من وراء تفجير السيارات المفخخة في صعدة والجوف هو إذكاء صراع مذهبي وطائفي في اليمن أسوة بما حدث ويحدث في العراق، وحجتي فيما ذهبت إليه هي أن السيارتين المفخختين اختارتا هدفيهما بشكل انتقائي،وليس عشوائياً، أو عملاً ارتجالياً، كما هو الحال في العراق، والذي عادة ما تستهدف السيارات المفخخة إيقاع أكبر قدر ممكن من الخسائر البشرية في صفوف أبناء الطائفة الشيعية، دون النظر إلى صفاتهم ومراكزهم الاجتماعية وانتماءاتهم المناطقية، وهذا بعكس ما هو عليه الحال بالنسبة للعمليتين الانتحاريتين اللتين وقعتا في محافظتي الجوف وصعدة، فالأولى حسب المعطيات الأولية، تشير إلى أن الانتحاري الذي كان يقود السيارة المفخخة تجاوز رتلاً من السيارات التي كان يستقلها مؤيدو الحوثي، واختار سيارة عبدالله العزي عبدان دون غيرها هدفاً له، والمذكور يعد من الوجاهات الاجتماعية البارزة في محافظة الجوف، وشيخ قبيلة آل "حمد"، وبالمثل استهدفت السيارة الثانية، المفخخة بالمتفجرات، شخصية اجتماعية أخرى من محافظة مأرب، وهو الشيخ مبارك المشن الزايدي، ومعنى ذلك في الأخير أن العمليتين استهدفتا وجاهتين قبليتين أعلنتا انضمامها وتأييدهما للحوثي مؤخراً، باعتبار أن عبدالله العزي عبدان هو من سهل تمدد الحوثي في محافظة الجوف، وبالمثل فإن إعلان مبارك المشن الزايدي تأييده لعبد الملك الحوثي لم يمض عليه سوى ثلاثة أشهر، على أبعد تقدير، ويفهم من هذا أن القصد والغاية من تلك الهجمات هو منع نفوذ الحوثي من التمدد إلى خارج صعدة، وفي نفس الوقت تحذير الزعامات والوجاهات القبلية من خطورة وعواقب دعم وتأييد الحوثي، باعتبار أن ما أقدم عليه المشن الزايدي، وعبد الله عبدان قد يشجع زعامات قبلية غيرهما لتبني نفس الخطوة.

وإذا ما افترضنا أن القاعدة انتقمت بالفعل لاعتقال اثنين من عناصرها في الجوف، فما شأن أبناء محافظة مأرب، ولماذا لم تنفذ تلك العمليات أثناء تشييع جثمان بدر الدين الحوثي، أو وسط الحشود المحتفلة بيوم الغدير. قد يقول قائل إن ذلك جاء بحكم صعوبة تنفيذ تلك العمليات في تلك الأماكن، وهذا أيضاً قول مردود عليه، لأن تنفيذ العمليتين ضد أهداف أخرى ليس بالأمر المستحيل، وإذا كان هناك من يعزو اختيار مواقع الهجوم والشخصيات المستهدفة إلى صعوبة وصول عناصر القاعدة إلى مواقع تجمعات الحوثيين؛ فإن التسليم بصحة هذا الطرح تحوم حوله شكوك، فقد كان من الممكن تصديق الأمر لو أن جماعة الحوثي كيان متجانس يصعب اختراقه، لكن الحقيقة تبدو غير ذلك، حيث إن الجماعة عبارة عن خليط من قوى وعناصر شتى، وذات مصالح وغايات مختلفة، وتضم لفيفاً من العناصر الفارة من العادلة وبعض أفراد عصابات تهريب الأسلحة والمخدرات، ومن هنا فإن بالإمكان الوصول إلى تلك التجمعات بدون كبير عناء، حيث لا يتم في العادة التدقيق في هوية السيارات والأشخاص الذين يتوافدون إلى الاحتفالات السنوية بيوم الغدير.

زيادة على ذلك، فإن القاعدة لو كانت تستهدف من وراء هاتين العمليتين جماعة الحوثيين ذاتها لكانت استهدفت زعامات وقيادات حوثية معروفة، وليس المشن الزايدي الذي لم يمض على إعلان تأييده للحوثي سوى بضعة أشهر، ولم يسبق له أن حارب في صفوف الحوثيين طوال الحروب الست الماضية، ولا تربطه علاقة أيديولوجية بجماعة الحوثيين.

وماذا بعد ... نظرة إلى المستقبل

لا تبعث المؤشرات المتوافرة حالياً على التفاؤل بإمكانية توقف الهجمات الانتحارية التي تستهدف الحوثيين بواسطة السيارات المفخخة، وغيرها من الوسائل الأخرى في المرحلة القادمة، بل إن القادم من الأيام قد يكون أسوأ، وخاصة في ضوء تزايد حدة العداء المتبادل بين القاعدة والحوثيين في الفترة الأخيرة، والذي وصل إلى حد إهدار الدماء، وشن حملات تحريض متبادلة والاشتباك بين أعضاء الفريقين في السجون والمعتقلات. فتنظيم القاعدة من جهته يبدو مصمماً على خوض المواجهة مع الحوثيين لاستئصال ما أسماه "النبتة الخبيثة التي زرعها الشيعة الإيرانيون الروافض، في صعدة، وما جاورها" وقال التنظيم في بيان له عقب العمليتين الانتحاريتين إنه شكل وحدات خاصة لهذا الغرض، كما تعهد في نفس البيان بمواصلة عملياته ضد الحوثيين قائلاً "لقد أعددنا لهم رجالاً لن يهدأ لهم بال حتى يطهروا الأرض من رجسهم وإجرامهم".

وعلى عكس الظاهر والمعلن من المواقف، تؤكد الحقائق على أرض الواقع أن الحوثيين بدورهم شرعوا في اتخاذ العديد من الإجراءات الرامية لمواجهة القاعدة، ومنها توزيع منشورات تهدر دم كل من يتعاون مع أعضاء التنظيم في مناطق تواجدهم، وأقاموا العديد من نقاط التفتيش في الطرق المؤدية إليها لمنع وصول أعضاء القاعدة إلى هناك، ويقال إنهم اعتقلوا مجموعة من أتباع التنظيم في الأسبوعين المنصرمين، وقد تأكد هذا التوجه لدى الحوثيين بشكل لا لبس فيه من خلال تصريحات القائد الميداني لجماعة الحوثيين، التي أعلن فيها - دون مواربة - إهدار دم كل من يتعاون مع تنظيم القاعدة.

غسيل أرضية منزل بمساحة 100 م2
بواسطة الرش يحتاج 90 لتراً على الأقل
بينما بواسطة المسح العادي يحتاج 18 لتراً

مؤسسة 14 أكتوبر للصحافة والطباعة والنشر

SHEBA CENTER FOR STRATEGIC STUDIES مركز سبأ للدراسات الإستراتيجية